٧

الهجرة إيمان وتنظيم

١ ـ عروبة الهجرة

كانت هجرة الصحابة رضوان الله عليهم إلى الحبشة سابقة للهجرة العامة إلى المدينة مع اختلاف فى خصائص كل من الهجرتين .

وقد سبق هذه الهجرات إيذاء شديد لحق المسلمين تحملوه بإيمان راسخ ، وتنوعت طرق التهديد والإيذاء : كان الكفار يحاربون التاجر المسلم فى تجارته ، وإذا كان الرجل ضعيفاً عدَوا عليه بالضرب والتجويع والإعطاش حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضرب . ويروى البخارى أن خبابا (رضى الله عنه) قال : « أتيت النبى عليه السلام وهو متوسد ببردة وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمر الوجه ، فقال : قد كان من كان من قبلكم يمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ؛ ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل ، والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

وزاد الإيذاء ، والرسول لا يقدر على أن يمنع أصحابه مما هم فيه من البلاء ، فقال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه . فهاجر الصحابة إليها هجرتين .

والذى يستوقف النظر فى هذا الحديث الشريف أن الرسول دعا أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة ، ولكنه جعلها هجرة مؤقتة بدليل قوله « حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» . وهى بهذا لم تكن «هجرة استقرار» لنشر الإسلام ، واتخاذ الحبشة منطلقاً للدين الجديد ؛ وإنما كانت « هجرة إيواء » حتى يستطيع الإسلام أن يجد له قاعدة فى الجزيرة العربية نفسها .

يدل على هذا أن النبى عليه السلام بعد وفاة خديجة وعمه أبى طالب ، وما أصابه وأصحابه من إرهاق وعنت ، وبعد أن انتهى ما فرضته قريش على المسلمين من حصار اقتصادى واجتماعى فى شعب بنى هاشم ، خرج إلى ثقيف — فى الطائف — يطلب نصرتها ، فردته رداً غير جميل ، وأغرت به عبيدها وسفهاءها يسبونه ويصيحون به ، ويرضخونه بالحجارة حتى أدموه ، وخلص منهم ورجلاه تسيلان دماً . . ثم أخذ يعرض نفسه على أحياء العرب ، فى موسم الحج ، ليؤمنوا بالله ويصدقوا بالرسول ويمنعوه حتى يبين ما بعثه به الله . وتحمل النبى عليه السلام فى هذه المرحلة أذى بليغاً ، ولكنه مع هذا كله كان لا يهن ولا ينى عن عرض نفسه على القبائل .

وكتب السيرة مليئة بالحوار الذى كان يدور حول الشروط التى تشترطها القبائل لنصرة النبى . كان منهم من يريد أن يكون له الأمر بعد الانتصار ، ويرون الدين صفقة . فما يكون من النبى إلا أن يقول : الأمر لله يضعه حيث يشاء . ومنهم من تشكك فى الأمر قائلا : قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلا يصلحنا ، وقد أفسد قومه ولفظوه ؟

فهناك إذن إصرار من النبى عليه السلام على إبلاغ دعوته وعرضها على القبائل العربية أولا ، حتى يجد القوم الذين يقبلون أن تكون أرضهم منطلقاً للإسلام ، ورجالهم الرعيل الصادق الذى يحمل مع النبى أمانة هذا الدين .

ويسر الله هذا الأمر لرسوله حين استجاب الخزرج له عند العقبة فى موسم الحج قائلين : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا عائدين إلى يثرب وقد آمنوا وصدقوا .

بهذا استطاع الإسلام أن يجد « قاعدة عربية » لينتشر منها ، وكانت الهجرة داخلية فى الجزيرة العربية ، ومن هنا تميزت تميزاً واضحاً عن الهجرة الخارجية إلى الحبشة : تميزت فى المكان كما تميزت فى الهدف .

٢ ــ بين الإيواء والانطلاق

ولقد حدد الرسول عليه السلام الهدف من الهجرة فى بيعة العقبة الثانية حين خاطب الأنصار قائلا : « أسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسى وأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم » ، وبين الرسول منزلة دار الهجرة حين سأله الأنصار قائلين : « إن بيننا وبين الرجال "يعنون اليهود" حبالا نحن قاطعوها ، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ » ؛ فقال الرسول عليه السلام : « بل الدم الدم والهدم الهدم . أنا منكم وأنتم منى . أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » ، ويقصد بذلك أن من طلب دمكم فقد طلب دمى ، ومن أهدر دمكم فقد أهدر دمى لاستحكام الألفة بيننا . وهو معنى حديثه الآخر « المحيا محياكم والممات مماتكم »[1] .

بهذا يتضح الفرق الكبير بين اتخاذ المدينة قاعدة للإسلام ، وبين الهجرة إلى الحبشة التى كانت محددة بهدف موقوت ، حتى يجعل الله

---

(١) ابن الاثير : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤ : ٢٤٢ ــ ٢٤٣ .

لكم فرجاً مما أنتم فيه . والذى يهمنا تسجيله الآن أن الحبشة مع وقوعها فى شرق إفريقية ، وقربها من مهد الإسلام وغناها النسبى ، لم تكن فى عصورها التاريخية منطقة انطلاق فى أفريقية . وإنما كانت — فى الغالب — منطقة « إيواء » وعزلة . ولم تستطع أن تسيطر حتى على السهول الساحلية التى تقع إلى شرقها ، أو تتوسع فى الغرب والشمال الغربى . أما الجنوب فلم يكن هناك ما يدفع الأحباش إلى التوسع فيه ، لوجود نطاق جاف نسبياً ، تليه منطقة هضبة شرق أفريقية المرتفعة . ويعلق سير وليام ميور على احتمال هجرة الرسول عليه السلام إلى الحبشة بقوله : « لو لم يتوافر للإسلام مهاجر فى المدينة لربما هاجر النبى إلى الحبشة . وهنا كان من المنتظر أن ينزوى الإسلام ، ويتحول إلى مذهب مسيحى قصير العمر مآله الانقراض »(١) . وليس من الممكن أن نحكم على مصير الإسلام لو لجأ إلى الحبشة بنفسه . ولكن لو تخيلنا هذا لتسابقت عدة أسئلة إلى الذهن : من يحفظ القرآن العربى ؟ وما عدد هؤلاء الحفظة ؟ وما مصير الدين ، بلغته العربية ، فى البيئة الحبشية فى هذه المرحلة الأولى من مراحل نموه ؟ وإلى أى مدى سيسمح أهل البلاد لهذا الدين الجديد اللاجئ أن ينمو ؟ وما موقف الرومان من الحبشة ، حين يعلمون أن فيها ديناً عالمى الانتشار ، آوى إليها ؟ وهل يستطيع الإسلام أن يتخذ من الحبشة — وقتئذ — وهى مناطق مزقتها الأنهار إلى بيئات منعزلة ، قاعدة متماسكة ؟

أليس من الأقرب إلى الذهن أن يتابع الإسلام نموه فى مهده الأول الذى اختاره له الله ، وينزل القرآن العربى ، فى أرض العرب ، ثم يخرج دعاته بعد هذا ، ليدخلوا أفريقية من أوسع أبوابها وأقواها ، ويتخذوا من مصر قاعدة انطلاق فى أفريقية ؟

---

(١) Muir W. : The Life of Mohammed, P.70, Edinburgh. 1912.

ليس من الممكن أن نحكم على ما لم يحدث لسبب قريب ؛ هو أنه لم يحدث . ولا نريد أن يجمح بنا الخيال لنصور تاريخاً ونبنى عليه نتائج . والذى يعنينا ويستوقف أنظارنا ؛ أن النبي بقى فى هذه البيئة العربية لتكون قاعدة الإسلام ؛ وأن الهجرة إذا كانت من مكة إلى المدينة فقد كانت داخل الجزيرة العربية .

٣ ـ نماذج مؤمنة

ولم تكن الهجرة يسيرة على نفوسهم . فمكة قريبة من قلوبهم حبيبة إليها .. أحبوها وهم فيها ؛ وتغنوا بحبها وحنوا إليها وهم فى المدينة (١) .

ولنستمع إلى حديث السيدة عائشة رضى الله عنها : « لولا الهجرة لسكنت مكة . فإنى لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة . ولم يطمئن قلبى ببلد قط ما اطمأن بمكة . ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة » .

وقول ابن أم مكتوم ؛ وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت العتيق :

يا حبذا مكة من وادى
أرض بها أهلى وعُوَّادى
أرض بها ترسخ أوتادى
أرض بها أمشى بلا هادى

---

(١) انظر مادة مكة بمعجم البلدان لياقوت ٥ : ١٨١ ـ ١٨٨ ط بيروت

بل إن هذا الحنين ليبلغ مداه فى نفس الرسول عليه السلام وهو خارج منها ، ويتلفت إليها بعينه وقلبه ويناجيها وهو فى طريق الهجرة : « والله إنى لأخرج منك ، وإنى لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله ، وأكرمها على الله تعالى ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت »(١) .

ويحفظ لنا تاريخنا الإسلامى روائع من قوم رغبوا فيما عند الله فلم تفتنهم زهرة الدنيا ، وجعلوا مادة الحياة قربة إلى ربهم . .

فصهيب الرومى حين أراد الهجرة من مكة إلى المدينة ، قال له كفار قريش : « أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ! والله لا يكون ذلك . . » .

فقال لهم صهيب : « أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ » .

قالوا : « نعم » .

قال : « فإنى قد جعلت لكم مالى . . » .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ربح صهيب ، ربح صهيب » .

والقصة صورة كريمة من الإيمان : موقف وقفه صهيب رضى الله عنه ليختار بين المال الذى جمعه من كده وعرق جبينه ، وبين الخروج بدينه إلى المدينة ، فاختار الدين وترك المال ، ليذهب ويساهم فى إنشاء المجتمع الجديد .

وتعطينا أم سلمة رضى الله عنها نموذجاً كان الصراع فيه بين الإيمان والعاطفة ، لا بين الإيمان والمال ، كما رأينا فى قصة صهيب . فعندما عزم أبو سلمة على الخروج إلى المدينة رحل لها بعيره وحملها عليه ، وجعل معها ابنها سلمة فى حجرها ، ثم خرج يقود بها بعيره . فما رأته

---

(١) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١ : ١٨١ . ط . القدسى ، القاهرة .

رجال من بنى المغيرة حتى قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

قالت أم سلمة : فنزعوا خطام البعير من يده وأخذونى منه ، قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة وقالوا: « والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا » . فتجاذبوا سلمة الصغير بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد . وحبسنى بنو المغيرة عندهم . وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة . قالت : ففرق بينى وبين ابنى وبين زوجى . وكانت أم سلمة تخرج كل غداة فتجلس فى الأبطح ، فما تزال تبكى حتى تمسى . ومرت على هذا سنة أو قريباً منها ، حتى رق لها قلب رجل من بنى عمها — أحد بنى المغيرة — ورحمها ، وذهب إلى القوم قائلا : « ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! » قالت : فقالوا لى : الحقى بزوجك إن شئت . ورد بنو عبد الأسد إليها عند ذلك ابنها . وهاجرت أم سلمة مع ولدها إلى المدينة (١) .

ومما تحفظه لنا كتب السيره فى هذا الموقف أن أم سلمة عندما خرجت بولدها مهاجرة إلى الله ورسوله ، وأدركت التنعيم بظاهر مكة ، لقيت عثمان بن طلحة — أخا بنى عبد الدار — وكان مشركاً فصحبها حتى أوفى على قباء قرب المدينة وقال لها: « هذا زوجك فى هذه القرية » . ثم انصرف راجعاً إلى مكة . وتصف أم سلمة كيف أكرمها عثمان فى هذه الصحبة ، وكيف حافظ على أكرم التقاليد العربية ، فى رعاية سيدة مهاجرة ، من حياء ورعاية ، حتى كانت تقول: « ما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن أبى طلحة » .

من هذه النماذج تبدو لنا طبيعة الهجرة : هجرة إلى الله ورسوله ،

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢ : ١١٢ — ١١٣ ط . الحلبى ، القاهرة .

ليس لها من دافع إلا الإيمان والامتثال لأمر الله تعالى : والسعى لإيجاد قاعدة ، يستطيع فيها الإسلام أن يرفع أعلامه وينشر أنواره ويهدى الناس إلى الحق .

٤ ـ تخطيط الهجرة

ولقد تعاون فى الإعداد للهجرة والمشاركة فيها رجال ونساء وشباب وفتيات ، مسلمون وغير مسلمين ، فجاءت الهجرة صورة تطبيقية للإيمان ولشرف الكلمة يقولها غير المسلم فيلتزم بها :

- الذين ساهموا فى الهجرة كان فيهم الكهول كالنبى عليه الصلاة والسلام وأبى بكر .
- والشباب كعلى بن أبى طالب وعبد الله بن أبى بكر ،
- والفتيات كأسماء وعائشة ابنتى أبى بكر ،
- والرعاة من القاعدة كعامر بن فهيرة راعى أبى بكر ؛
- وعبد الله بن أريقط وهو الدليل الذى صحب الركب من غار ثور إلى المدينة ، ولم يكن على دين القوم .

وإذا نظرنا إليهم اجتماعياً : وجدنا فيهم الغنى والفقير ، والقرشى وغير القرشى ، يجمعهم جميعاً رباط الإيمان والكلمة الشريفة . وأى اهتزاز فى أحد هؤلاء كان كفيلا بفشل الخطة كلها .

وكان على كل من هؤلاء عمل محدد يؤديه ، وتوقيت دقيق ينبغى أن يلتزمه :

كان على علىّ أن يبيت فى فراش الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ وعليه المهام التالية :

١ ــ وجوده فى فراش الرسول سيجعل القوم يظنون أن الرسول ما زال راقداً فيه . فإذا ما أصبح الصباح ، أو جاء الفجر ، وهاجموا البيت فوجئوا بهذه الخطة . ولم يكن من المستبعد أن يستبد بهم الغضب فيعتدوا على علىّ . فالمهمة بهذا كانت لها خطورتها التى قد تصل إلى القتل .

٢ ــ كان عليه بعد هذا أن يقوم بعمل كريم فى مكة ، فى الوقت الذى تحارب فيه الرسول والإسلام . عليه أن يرد الودائع التى كانت عند الرسول . ومكة كلها تعلم أن الصراع بينها وبين الإسلام لم يخرج عن إطار العقيدة أولا . ولم يكن هذا الصراع ليجعل أى فرد فيها يشك فى أمانة الرسول ، مهما اشتدت عليه الضغوط . ولك أن تتصور الإيذاء الشديد الذى كان يقع على الرسول وأصحابه ، وأن أهل مكة أو الرأى العام فيها ــ إذا شئت اصطلاحاً حديثاً ــ كان موقناً أشد اليقين ــ أن أخلاقيات الرسول وأدب الإسلام ، لا يمكن أن تتأثرا بهذا الضغط ــ وما كان أقساه ــ وأن ينعكس هذا الضغط على مصير الودائع . فكان كفار مكة يتعقبون الرسول ويحاولون اللحاق به ، وكان على بن أبى طالب فى أهل مكة يرد الودائع إلى أهلها !! ...

٣ ــ ثم كان عليه بعد هذا أن يلحق بالرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة . ولم تكن عنده من راحلة ؛ فقطع هذه الصحارى المحرقة . فما وصل إلى قباء على أطراف المدينة الجنوبية إلا بعد أن تقرحت أقدامه وأرهقه الطريق الطويل .

● وكان على عبد الله بن أبى بكر أن يبقى فى مكة وسط قريش ، يسمع منهم ما يقولون . كانوا يعرفون صلته بالموقف كله ، ولكن عبد الله كان مستطيعاً أن يقوم بهذه المهمة فى هدوء وتعقل . ولو كان دخل مع القوم فى صراع وحوار عنيف لظنوا به الظنون ، ولكنه ــ فيما يبدو ــ لم يكن يظهر أى أثارة تدل على هذه الصلة ، كان يسمع القول فى الرسول

وأبى بكر ويجمع هذه الأخبار جميعها ، دون أن يبدو عليه أنه راغب فى ذلك قاصد له ، فإذا ما أتم مهمته سعى إلى الغار ، دون أن يبدو عليه ذلك . ولعله كان يسلك إليه طريقاً طويلا ، ويرقب كل من حوله ، حتى إذا ما اطمأن سلك إلى الغار طريقاً ، ليقدم إلى الرسول صورة كاملة لما حدث فى مكة ، ليكون على بينه من الأمر . ويبيت معهما فى الغار ثم يقوم فى السحر ليلحق بمكة كأنه بات فيها .

ولو كان عبد الله بن أبى بكر غير محتاط لأمره . لانكشف أمر الغار واستطاع كفار قريش أن يذهبوا إليه . والأمر عند عبد الله ، ليس فقط مجرد وصول إلى الغار ، دون أن يستطيع أحد أن ينجح فى تتبعه لو أراد ، ولكن كان عليه أن يصل فى توقيت معين ، قبل الموعد الذى يصل فيه عامر بن فهيرة راعى أبى بكر .

● وكانت أسماء ، ومن ورائها بيت أبى بكر ، يقومون بإعداد الطعام للرسول وصاحبه ، على نفس المستوى من الحذر ، والمسئولية ، وكتمان الأمر فى دقة لا تعرف التهاون .

● فإذا ما تم وصول الطعام والأخبار وترك السير أثره على الطريق . كان على عامر بن فهيرة أن يمر بأغنامه على ما ترك عبد الله وأخته من أثر ، ثم ينتهى إلى الغار ليأخذ الرسول وصاحبه ما هما فى حاجة إليه من ألبانها .

● يبقى بعد هذا عندنا عبد الله بن أريقط ، والرواحل معه معدة ، تنتظر الإشارة ممن فى الغار ليأخذوا طريقهم إلى المدينة .

٥ ـ التنظيم العلمى

فهنا نرى تنظيماً دقيقاً للتموين والأخبار وعمليات التغطية، والاتصال المستمر بمكة، وفتح الطريق إلى المدينة ، واتخاذ طريق نحو الجنوب الشرقى أول الأمر . بينما القوم يبحثون شمالا وغرباً ، والانتظار فى الغار حتى يظن القوم أنه قد أفلح فى اختراق الحصار الذى ضربوه ، فإذا ما اطمأن إلى فشلهم فى كل ذلك : بدأ طريقه إلى الغرب عن طريق الساحل، غير سالك ما اعتادوه من دروب ثم يصل إلى منطقة الجبال بعد هذا، فى طريق وعر قليل سالكوه . فالتنظيم العلمى هنا دقيق لم يترك أى شىء لصدفة ، وهو تنظيم بلغ من دقته أن القوم كانوا أقرب ما يكونون إلى الرسول وصاحبه فلم ينالوا منهما شيئاً .

ولنقف طويلا عند قول أبى بكر : « لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآنا »، فكأنه برغم ماذكر فى كتب التاريخ من أمر العنكبوت والحمامة والغصن المتدلى . برغم كل هذا لو نظر أحد الكفار إلى موضع قدميه لرأى الرسول وصاحبه .

هل نظر القوم إلى غير ذلك فشغلوا بما رأوا من أمر العنكبوت والحمامة والغصن المتدلى ؟

هل كان اليأس قد وصل إلى مكامن قلوبهم فتعلقت أعينهم بما يرون ، فشغلهم عن أن ينظروا إلى مواضع أقدامهم ؟

نحن كثيراً ما نقف عند أثر العنكبوت والحمامة والغصن . ولكن هل لنا أن نقف طويلاعند أمرين ؟:

١ــ الاستعداد الدقيق والتنظيم العلمى الذى وضعه الرسول للهجرة، بحيث إن القوم عندما وصلوا إلى الغار لم ينظروا إلى مواضع أقدامهم .

٢ ـ أن تأييد الله مرتبط ببذل أقصى الجهد . وأن الخروج عن هذا يمكن أن يؤدى إلى عواقب خطيرة .

والنموذج عندنا واضح مما حدث للمسلمين فى غزوة أحد ، وبعد هذا فى الجولة الأولى من غزوة حنين عندما أعجبتهم كثرتهم .

فى هذا الضوء تستطيع أن تقرأ قوله تبارك وتعالى :

« إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ معنا . فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عليه ، وأَيَّدَهُ بجنود لم تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى. وكَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا ، واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [التوبة : ٤٠]

٦ ـ هدفها

وإذا كانت هجرة الحبشة مجرد « إيواء » لمجموعة من الصحابة إلى حين ، فقد كانت الهجرة إلى المدينة كما رأينا « انطلاقاً » لتكوين قاعدة جديدة .. كانت هجرة للتكوين والتغيير . تغيير موطن لتستعيد مكة وتطهر البيت الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود . ولتنطلق من الجزيرة العربية باسم الله وعلى بركة الله ، تحمل راية تحرير الشعوب ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتحل لهم الطيبات وتحرم عليهم الخبائث ، وتضع عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

كانت هجرة تغير بها وجه الحياة فى المدينة أولا . ثم الجزيرة العربية

ثانياً ، ومنها إلى مشارق الأرض ومغاربها ثالثاً . وأبرز ملامح هذا التغيير كانت :

١ ــ **اقتصادياً** : فقد استطاع المسلمون أن يحرروا أرض المدينة من أيدى يهود بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة . وعادت هذه الأرض إلى فقراء المسلمين ومن ساهموا فى تحريرها، على أساس من احتياجاتهم الحقيقية . وأبطل الإسلام كل أنواع الاستغلال التى كانت موجودة فى مجتمع المدينة . وفى هذا نقرأ قول الله تبارك وتعالى : « يا أَيُّهَا الذين آمنوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَة . واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * واتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكافرين * وأَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ لعلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فى السرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكَاظِمِينَ الغَيْظَ. والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين» [آل عمران ١٣٠ــ١٣٤] .

٢ ــ **أخلاقياً** : نرى التعبير القوى عن الإيمان، فى مظاهر الحياة فى قاعدة الإسلام، وفى ميادين القتال . ولنقرأ فى هذا قول الله عن العلاقة بين المهاجرين والأنصار : « والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، يُحِبُّون مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ولا يَجِدُونَ فى صدُورِهِمْ حَاجَةً مما أُوتُوا ، ويُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كان بِهِمْ

خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .
[الحشر : ٩] .

٣ ــ وسياسيًا : نرى تأصيل مبدأ الشورى والتلاحم الفكرى الدائم بين القيادة والقاعدة . وفى هذا نقرأ قوله تعالى : « فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » [آل عمران : ١٥٩] .

٤ ــ عسكريًا : رفع قوة الجيش الإسلامى من نحو ثلاثمائة فى غزوة بدر فى العام الثانى للهجرة ، إلى ثلاثين ألفاً فى غزوة تبوك فى العام التاسع للهجرة . وارتفعت أقوى قوة ضاربة وقتئذ ــ وهى الفرسان ــ من اثنين فى غزوة بدر إلى عشرة آلاف فى غزوة تبوك .

٥ ــ وفى المواصلات : بعد أن كان الإسلام محاصراً فى مكة ثم فى أوائل عهد المدينة ، استطاع أن يسيطر على طرق المواصلات العربية كلها ، ما بين الحجاز واليمن جنوباً وما وراءه فى أرض الحبشة ، والشام ومصر فى الشمال الغربى وأرض فارس فى الشمال الشرقى .

٦ ــ وفى وضع العلم فى خدمة الإعداد الحربى : أرسل الرسول البعثات التى احتاج إليها الجيش . ففى طبقات ابن سعد عند الكلام على وفد ثقيف ، ذكر أن عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يحضرا حصار الطائف لأنهما كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات والمجانيق

والدبابات (هي أسلحة حربية) . وجرش بلد بالأردن وعلى نفس الاسم مكان باليمن [١] .

وبعد : فهذه هي بعض مظاهر التغيير التي حدثت في مجتمع المدينة بعد الهجرة ، في مجالات الحياة ، على أساس من الإيمان والعلم والتنظيم والفاعلية التي استطاعت أن تحقق هذه الثمار .

ولعل أصدق احتفال بالهجرة أن نأخذ منها دروساً ، وأن نحول هذه الدروس إلى حياة نابضة ، ثائرة دائماً على كل أنواع الاستغلال ، عاملة على أساس علمي لتغيير المجتمع إلى صورة أفضل . ولنقرأ في هذا قول الله تعالى :

« إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »

[الرعد : ١١]

---

(١) انظر : التراتيب الإدارية للكتاني ١ : ٣٧٥ – طبع الرباط ١٣٤٦ هـ .